أمثلة من الترجمة

Lukas Bärfuss
Hagard

Wallstein Verlag, Göttingen 2017
ISBN 978-3-8353-1840-3

صفحة 7–17

لوكاس بيرفوس

طائر جارح

ترجمة د. هبة الله فتحي

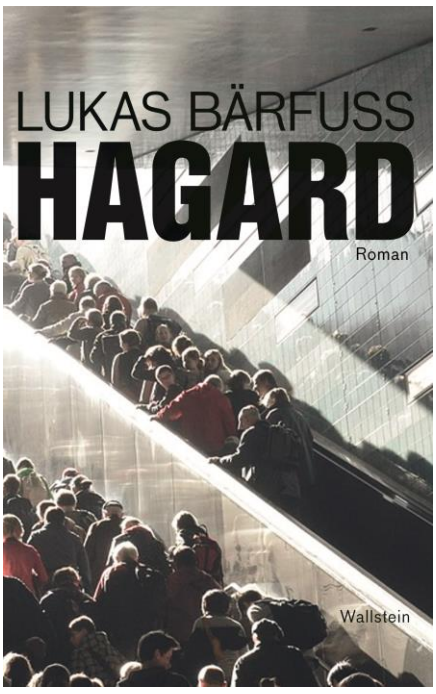

© 2017 Litrix.de

من أجل موريل

سيَّان بالنسبة لي من أين أبدأ، لأني سأعود إليه ثانية

بارمينيدس، العمل غير الكامل، العدد الخامس

© 2017 Litrix.de

أحاول، منذ مدة طال أمدها وفاق الحد، فهم قصة فيليب. أريد كشف السر الذي تخفيه. فشلت مرارًا وتكرارًا، ولم أفلح في فك رموز هذه الصور التي تطاردني؛ صور الرعب والهزل، التي نجدها في كل قصة يلتقي خلالها الشغف بالموت.

أعرف كل شيء، ولا أفهم أي شيء. أعرف توالي الأحداث؛ أعرف كيف بدأت القصة؛ أعرف اليوم والمكان: إنه كشك بيع الخبز المحمص أمام مخزن بالقرب من (بيل فو). أعرف توقيت النهاية، بعدها بست وثلاثين ساعة، في الصباح الباكر من يوم الخميس، الثالث عشر من مارس، في شرفة، في مكان ما في الضواحي. الأحداث الواقعة بين هذا التوقيت وذاك واضحة أيضًا: موضوع الفراء، والليلة الأولى الباردة في السيارة، وحافظة النقود المفقودة، وطائر العقعق، والحذاء المفقود، وعالم الرياضيات الياباني الميت –كل هذا واضح وضوح الشمس، ولكن الظروف والأوضاع المحيطة، التي أتاحت وقوع هذه الأحداث، تظل غامضة. كلما عرفت تفاصيل أكثر، صار العالم، الذي تقع فيه هذه القصة، أكثر سطحية. قد تظن أن حالي حال من يصفه هذا القول المأثور، ولكنني أصر على أن كلمة الغابة ليست سوى زعم؛ نظام مجرد ليس موجودًا في الحقيقة. الغابة تتألف عن مجموعة من الأشجار، مثلما تتألف السماء من مجموعة من الكواكب، والنجوم، والنيازك.

بعد محاولاتي العبثية لفهم ما يربط هذه الصور، توصلت إلى نتيجة مفادها أن المسألة لا تتعلق بفهمي للقصة في حد ذاتها، بل بفهم تورطي فيها، وفهم الرسائل الموجهة لي من هذه الظواهر، التي تبهرني، وتسحرني، وتدفع بي إلى حافة الجنون في بعض الأحيان. إن وجودي متعلق بهذه القصة؛ هذا ما أحاول إقناع نفسي به، وأدرك في الوقت ذاته تفاهتي، وأنني لا يجب أن أخشى شيئًا؛ إذ يمكنني تجاهل أيام مارس، ولن يصيبني مكروه، وسأواصل حياتي كما كانت. سأكون في أمان في واقع الأمر، إن اعترفت لنفسي بفشلي في قصة فيليب. إنها تفوق، رغم بساطتها الظاهرية، حدود قدراتي. أبدو وكأنني سوف أنسى في كل محاولة تفصيلة هامة، أو سأفقد إشارة قد تقودني إلى الطريق الصحيح. أعرف عدد المرات التي أقسمت فيها لنفسي وكذبت عليها، مثل مخمور يخدع نفسه بالكأس الأخير. أنا مقامر قد أوشك على الإفلاس، ولكنه يطلب الورق للمرة الأخيرة –سأقدم على محاولة أخيرة، سأعيد الأحداث مرة أخيرة إلى الحياة، ثم تنتهي بعد ذلك إلى الأبد.

© 2017 Litrix.de

نعم، لقد تملكتني شهوتي. بالطبع لي أنا أيضًا هواجسي، ولكنني أفضل، مثل الآخرين، أن أحتفظ بها لنفسي، ليس خجلًا، ولكن لأن معظمها لا يناسب الصورة التي رسمتها لنفسي، والتي تتطابق الآن مع صور البشر من حولي: رجل بنقاط ضعف كثيرة، وبمبادئ أكثر. ولكن الإيروس لا يعبأ بالصور التي نرسمها لأنفسنا، بل يبدو على العكس أنه يحاول دحضها. يقال إن لكل شخص جانبه المظلم، ولكنني فهمت، بمرور الوقت، أنه لا يجب تقييم ذلك من المنظور الأخلاقي عند معظم البشر؛ إذ لا يصح ربط الظلام بالشر والضياء بالخير. الجانب المظلم هو الجانب الذي ينقصه النور، ولقد استغرق الأمر وقتًا طويلًا إلى أن أدركت أن القطط بالفعل لونها أسود ليلًا، وليس المسألة أنها تبدو كذلك فحسب، لا: إن القطط تفتقد أي لون. كيف وصلت إلى هذا الخاطر؟ آه: كنت أتحدث عن هواجسي. يجب عليَّ هنا التفكير في اعترافات (روسو)، التي قرأتها منذ سنوات قليلة. بحسب ما أذكر، يبدؤها بتقريرغاية في الصراحة عن نفسه؛ لن يتعمد خلاله إغفال أي معلومة، وما لن يتمكن من سرده يكون قد طواه النسيان. أتذكر أنني لم أصدق مراده هذا، ظننته تكلّفًا، مجرد إدعاء، كما يقولون. شككت في أي كاتب، إلى أن يبدأ في الحديث عن ميوله الجنسية. لا أتذكر كلماته، وإنما أتذكر تأثري بها فحسب، وأنني بدأت، منذ هذه اللحظة، أصدق ما يدعيه. هل يجب عليَّ البوح بسلوكي الشاذ حتى يكتسب تقريري المصداقية؟

بعض التفاصيل في قصة فيليب تحرجني؛ ليس اللحظات الغريبة والدنيئة والمريضة، الموجودة في القصة أيضًا، هي السبب، بل يكمن السبب في تفاهة بعض التفاصيل، التي أجد صعوبة في التعامل معها. يبدو الكثير من الأمور صغيرًا ومتعلقًا بالحياة اليومية. لو كان حذاء الباليرينا الأزرق، الذي أثر في فيليب، حذاءً عاديًّا، لا يقتصر ارتداؤه على الراقصات فحسب، لكان الأمر أيسر بالنسبة لي. يمكن الحصول عليه بمبلغ بسيط من أي متجر، بخيط أو بمادة لازقة، بشريطة عند ظاهر القدم، أو بدون، بكل الألوان الممكنة اللامعة والمطفأة. وكونها مصنوعة من جلد العجل، الذي اختير وصنع بعناية، لا يغير من الواقع شيئًا: تبدأ هذه القصة بزوج حذاء نسائي.

البداية؟ هذه مسألة أخرى، لا يملك أحد تحديد الحدث الذي تبدأ به أي قصة. يقال إن الرب قد خلق في البداية السماء والأرض، ولكن ماذا كان يفعل قبلها؟ أيًا كان ما فعل، لماذا لا نعتبره البداية أيضًا؟ سيعترض علماء الفيزياء، الذين يضعون الانفجار العظيم محل الرب، مدعين أن السؤال عبثي؛ لأنه يفترض وجود الزمن، الذي لم يكن موجودًا قبل الخالق، أو قبل الانفجار العظيم. تزعم الكتب والأفلام أن لها بداية، ولكن، في حقيقة الأمر، لا بدايات بعد البداية الأولى. ولا نهاية مؤقتًا أيضًا، إن كان ذلك سيعزينا. تتحول النهايات إلى بدايات، ولكن الروح البشرية لا تفهم العلاقة بين نهاية قصة وبداية قصة أخرى. من يسعى إلى تفكيك نسيج الواقع سيشتت نفسه. هذا ما أرفضه. أريد حل اللغز، ولكن لا أريد أن أفقد عقلي.

أنا شاهد على أيام مارس هذه، وأنا كشاهد سوف أقدم لكم تقريرًا عنها، تقريرًا كاملًا، لا يجمل الحقيقة. بعض الأمور ستضر بصورتي، ولكنني لا أهتم بذلك. بمقدوري، من أجل إظهار المصداقية، أن أغفل تفصيلة هنا، أو أدعي شيئًا هناك، لكنني لا أرغب في ذلك. أعترف أن هاجسي هو الصدق. سواء كان هذا الأمر تافهًا أم لا: لقد كان حذاء الباليرينا الأزرق هو السبب في تحرك فيليب. سبب مطاردته له؟ ليس لدي إجابة على ذلك. كانت لعبة، على الأقل في البداية، بريئة ولا يشوبها أي خطر. لو أن

فيليب قد عرف ما سيحدث في الساعات المقبلة، لترك السيدة وشأنها. لم يبحث عن هلاكه، ولا حتى عن الخطر، ومع ذلك، عندما تطور الأمر، وأدرك بأي خيط يتعلق وجوده، لم يتردد في مواجهة هذا الخطر.

المؤكد أن: فيليب، رجل في نهاية الأربعينيات، ثقيل الوزن، فقد شيئًا من رشاقته في السنوات الأخيرة، قد انتظر يوم الثلاثاء 11 مارس، في الساعة الرابعة والربع، رجلًا يدعى هانلوزري مقهى على أطراف منطقة البلدة القديمة. لم يعرفه فيليب من قبل، ولكنه سمع أن متجر اللوحات الخاص به قد أفلس للتو، وأنه مجبر على بيع قطعة أرض تملكها عائلته منذ أجيال؛ مساحة غير مزروعة في منطقة مرتفعة عن البحر. شعر فيليب بعدم الارتياح لمكان اللقاء؛ إذ كان يفضل حجرة الاجتماعات في شركته، ولكنه وافق؛ لأنه استشعر صفقة سريعة؛ قدر ربحها بحوالي ثلاثين ألفًا، كما أنه كان سيلتقي في السادسة مساء ببيليندا، في مسكنها القريب من المقهى.

كان المقهى يقع داخل قصر برجوازي يعود إلى القرن التاسع عشر، فندق ضخم فيما سبق، ترجع نشأته إلى مرحلة توسعة نطاق المدينة، قاموا حينها بردم خندق للمدفعية وإزالة شاطئ البحيرة. الذهب والقطيفة الحمراء تهيمن على الأجواء، وهناك سلم عريض يؤدي إلى المنصة. جلست الأمهات مع أطفالهن إلى الطاولات؛ أمامهم بقايا الحلوى، وكؤوس العصير الفارغة، وفناجين القهوة. لم يأت هانلوزربعد، وفكر فيليب في طلب قطعة كعك من نافذة العرض، ولكن لم يبقَ إلا خمس دقائق على الموعد المتفق عليه، ولم يرغب أن يفاجئه الآخر وفمه مملوء بالطعام. اكتفى لذلك بطلب فنجان من القهوة، وأفرغ فيه كيسين من السكر. لم يحضر هانلوزربعد مرور عشر دقائق أيضًا، وكان هذا الوقت كافيًا لإلتهام نصف كعكة في هدوء. لم يجب على اتصاله، ولا على الرسالة التي كتبها فيليب إليه. تأكد من فيرا من صحة الرقم، ثم تابع آخر الأخبار عن طائرة البوينج 777 التابعة للخطوط الجوية الماليزية، التي اختفت منذ الأحد الماضي في منطقة رياح (الأربعينيات مزمجرة)، وكان على متنها 139 راكبًا؛ كان حدثًا تراجيديًّا يشغله ويؤرقه أيضًا. لم يكن لدى الجهات المختصة في (كوالا لامبور) أدنى فكرة عما حدث للطائرة. ظلت عمليات البحث، التي يتسع نطاقها من ساعة لأخرى، بلا أي نتيجة. اشتلمت قائمة المسافرين على أسماء من الصين وماليزيا، فضلًا عن اثنين من النمسا، اتضح أنهما في الحقيقة من إيران، وتوصلا لركوب الطائرة بجوازات سفر مزورة. لبضع ساعات اشتبه في كونهما إرهابيين، ولكن اتضح أنهما مهاجران غير شرعيين. لم يُعثر على حطام، كما أن بقع الزيت الموجودة في (مضيق ملقا) سببها حركة السفن المعتادة في هذه المنطقة.

قرر فيليب، في لحظة ما، أن يتجول داخل المقهى، ولكنه لم يجد شخصًا تنطبق عليه مواصفات هانلوزر. حينما عاد إلى طاولته، لم يجد فنجانه، وحلت سيدة سمينة بقبعة زرقاء محله. وقف فيليب للحظة مترددًا؛ ولا يعرف ماذا يفعل، إلى أن أخذ حقيبة مستنداته، ودفع الحساب على البار وأخذ باقي النقود، ثم خرج إلى الشارع.

الحقيقة الأخرى التي أزعجتني هي المدينة التي جرت فيها كل هذه القصة. إنها المدينة التي أعيش فيها منذ عشرين عامًا؛ أَلِفْتُها، وصارت وطني. حينما أمر على الأماكن، التي ترك فيها فيليب أثره، وتحدد فيها قدره، وكلها أماكن هادئة ومسالمة، ألاحظ أن وقوع هذه القصة هنا أمر مستغرب. السكان هنا يعملون في بجدية، ولا يميلون إلى التطرف. تمضي الحياة في هدوء، ولا تمثل

الصراعات التي تقع هنا الوضع العام، وقلما تنتهي بالموت. إن رسمنا خطًا لحياة أحد السكان هنا، سيكون خطًا مستقيمًا يربط بين الميلاد والموت، دون ارتفاعات أو انخفاضات، يسعى في ضعف إلى نهايته، تقطعه أحيانًا بعد الاضطرابات مثل المرض أو الطلاق. قلما تنتهي هنا أي حياة بعد الأربعين بطريقة مختلفة عن الانخماد البطيء. ربما خانني التعبير؛ لأنه يفترض وجود نار تحترق. قلما يقف شخص هنا وسط ألسنة اللهب؛ فالحياة هنا أشبه ببالون يخرج منه الهواء في بطء. نعم، البؤس موجود، وهنا يعيش أيضًا بشر يُعذِّبون، وبشر يعانون. نسمع هنا أيضًا عن المسنين المثيرين للشفقة، الذين يتعثرون يومًا ما في قطعة أثاث؛ يظلون مستلقين على الأرض في ضعف، ولا يقوون على النداء طلبًا للمساعدة، ويموتون عطشًا في غرفة نومهم. لا يلحظهم أحد، إلى أن يُعثر عليهم بعد شهور؛ بسبب رائحة طيبة في العمارة. نفقد أثر الأموات، ولكن نلاحظ وجود الأحياء. لا يمكن لشخص أن يختبئ. نتعجب ونستغرب، هنا في المدينة، حينما نسمع عن أشخاص اختبأوا لسنوات، بل ولعقود، عن أعين الشرطة، مثل هذا المجرم الذي سكن منزلًا ريفيًا في جنوب إيطاليا، وكان يدير شؤونه من هناك، عبر تدوينات بخط يده؛ كتبها على قصاصات ورق صغيرة بخط متناهي الصغر. كانت تعليمات وأوامر تخص الأفراد الجدد الذين سينضمون إلى منظمته، والتوقيت المناسب لقتل الخونة، وكيفية تسوية النزاعات على مناطق ما. أمر كهذا يثير داخل مدينتنا الدهشة والتعجب. لا بد أن يثير شخص يعيش بهذه الطريقة الأقاويل من حوله، وسوف تصل هذه الأقاويل إلى السلطات، وستُكشف هوية هذه الشخص. هناك حالة يقظة عامة، ولكن لا يعني ذلك أننا منتبهون ومهتمون بمدينتنا والمواطنين من حولنا، بل إن عدم الاكتراث هو الشعور السائد. إنه نوع من التجاهل الراقي لأحوال الغير وأحوال الذات. منذ ما يقرب من مائة وستين عامًا، قيل، في سياق آخر، عن البشر هنا أنهم كانوا قادرين على سرد أعجب القصص والأساطير بدقة متناهية، دون معرفة أصل هذه الحكايات. تغير الحال منذ ذلك الحين كثيرًا؛ تتمتع المدينة بحب العالم لها، تأتي شخصيات دولية لقضاء بضع سنوات هنا؛ يتمتعون، ويستجمون، دون رغبة في الاستقرار فيها، أو الارتباط الوثيق بها.

كان من المستبعد لشخص مثل فيليب هذا، أن يختار لنفسه قدرًا آخر، وأن يغير اتجاه حياته، خلال أيام قليلة، من وجود متين وآمن إلى حافة التدمير الذاتي. من الوارد أن تدور هذه الأحداث في محيط تحكمه الصراعات الداخلية لبشر اعتادوا النزاعات والاندفاع العاطفي؛ تملأ الخصومات حياتهم— ماذا عسايَّ أن أفعل؟ إنه تناقض آخر في قصة فيليب، ويجب أن أتعايش معه.